الشيخ عثمان

قصة سودانية

بقلم: السيد علي كرار

عمره ثلاث عشرة سنة .. قمحي اللون ، قصير القامة على وجهه تجعيدات خفيفة خطت برفق .. رأسه مستطيل. في عينيه عمق غريب . كان يسير وكان الدنيا كلها تحت قدميه ، يرفع رأسه عاليا كأنه يريد ان يعانق السماء . أدار جسده ناحية اليمين ، وتوقف فجأة ثم احنى ظهره بصعوبة ليلتقط من الارض شركا كان قد نصبه في عصر الامس . الشرك لم يكن في محله .. يلتصق به ريش قمرية .. وارتسمت على شفتيه بسمة المرارة واليأس . وبلامبالاة القى بالريش في الفضاء فاخذت نسمة الصباح معها الريش . جلس عثمان في مكانه يحدق في الارض يبحث عن أثر .. اي أثر .. أقدام حمار .. بقرة .. ماعز . ولكنها كلها لا تهتم بشركه . ووجده أثر ثعبان كبير وتبعه وقد نوى شيئا . انه الثعبان .. هو الذي أخذ قمريته . وتبع الاثر الذي يتلوى في الزقاق الذي يشق أحواض البامية وتوقف تحت نخلة القرقودة.. ينظر في جذعها فلم ير أحدا . وابتدأ يدور تحت النخلة ولكن بدا له ان الثعبان لم يفارقها على الاطلاق . ونظر الى أعلى فرأى عدوه الثعبان يلتف بجسده حول جريدة من جرائد النخلة والقمرية في فمه . وأخذ حجرا ورمى به الثعبان. ولكن الثعبان لم يقع ، وأرسل آخر وثالث . وفجأة توقف . ماذا يقول عنك الناس عندما يرونك يا عثمان . وانت رجل كبير ينادونك بشيخ عثمان .

كان عثمان أكبر أولاد أبيه . وعندما توفي والده في السنة الماضية بقي هو المسئول عن الساقية والحمار والبقرتين. وكبر في عيون الناس . ومن ثم بدأوا ينادونه بشيخ عثمان . وكانت أقواله وحركاته وسكناته تقول انه في سن العشرة أو أكثر وليس الثالثة عشرة . يقوم في الصباح ليؤدي الصلاة ، وبعد ذلك يتحرك الى الساقية ، ويحرث فيها حتى يأتيه البقية من الرجال . كان يؤدي عمله في نشاط واحساس عميق بالمسئولية التي تتمثل في أمة آمنة واخته سعيدة وأخيه الصغير علوبي . كبر في نظر أمه وأخته وأخيه الصغير الذي كان يناديه ـ بابا ـ .

توقف عثمان عن رمي الحجارة ، وتلفت حواليه وعلى شفتيه ابتسامة .. فلم يره أحد . ودخل المراح ، وصار يربت على ظهر احدى بقرتيه بعد أن الة بالشرك في ركن من اركان المراح . بدأ يلملم بقايا سيقان الذ

أحضرها بالامس عشاء لبقرتيه ، وكومها في داخل المراح ، وبعد ذلك بدأ يجمع بعر البقرة الصغيرة ليزيحها عن طريقه . وابتدأ يفرش البعر تحت الشمس . والقى بنظرة الى الجعرانة التى كانت تدحرج كرة من البعر . ووقف يمط جسده في الفضاء كانه يريد أن يعانق السماء .

كانت أخته سعيدة التى تبلغ من العمر الخامسة عشرة تسير نحوه ، وقالت وهى تضع البعر الناشف في قفة تحملها ـ عثمان سقيت الحمار . وتوجه وهو يمد اصبعه نحوها يحذرها قائلا :

أوعك تشيلي قصبة واحدة من المراح . القصب دا دايرين نخلى للبقر في الشتا .

واجابته بانها تعرف ذلك . توجه عثمان الى مربط حماره خلف المراح ، وركبه وتوجه الى النهر . كان يبدو على الحمار انه لم ير الماء منذ أيام مما جعله يخوض فيه حتى وصلت المياه الى بطنه . في تلك اللحظة كانت أسراب من الفتيات يحملن الصفائح الفارغة ليملأنها من النهر . وتوقفن عندما رأين عثمان يغسل ظهر حماره وهن يهمسن لبعضهن بصوت خافت ، وعلى وجوههن فرحة طاغية .. كان في نظرهن كبيرا .. كبيرا وعاقلا . وحدق فيهن عثمان ثم عاد يغسل ظهر حماره . وتقدمت الفتيات وهن يشمرن ما عليهن من ثياب الى النهر ليملأن الصفائح . عاد بحماره الى المراح ، وهناك وجد أمه آمنة قد عادت من الجزيرة بعد أن أحضرت كمية من النجيلة لغذاء البقرتين . وكان يبدو عليها التعب والارهاق ووجهها ينم عن تعبير مخلوط بالفرح والحزن . شعيرات بيضاء متطفلة بدأت تتسرب داخل شعرها قبل أوانها . ورفعت رأسها في اعياء شديد تنظر الى ابنها كانها لاترى راسه .. خيل لها أنه أطول من كل شيء . وتقدم هو منها وطبع على جبهتها المكسوة بالتراب قبلة حارة جعلت الصفاء يرجع الى وجه الام الكئيب . وانفرجت شفتاها عندما بدأ عثمان ينفض عن قميصها بقايا النجيلة التى علقت به . ونهضت واقفة لتضمه بقوة كانها تريده أن يدخل فيها مرة أخرى . وتقدمت منها سعيدة التى كانت تحمل على رأسها وتضع تحت ابطها حزمة من جريد النخل الجاف . جلست بالقرب من امها ، وأخذ عثمان يفرغ النجيلة والبقرتان تلتهمانها في سرعة .. وضرب عثمان احدى البقرتين لتفسح له الطريق ، وأخذ ما بقى من النخيلة وافرغه أمام حماره الذى كان يفتح فمه يستعد للنهيق ، ولكنه بلع صوته عندما رأى الخضرة أمام عينيه .

طلبت آمنة من ابنها أن يذهب معهن للبيت الا أنه اعتذر بانه يريد أن يرى الاحواض التى سوف تسقى بالليل . وتوجهت آمنة وسعيدة الى الحملة عندما أخذ عثمان شركه وكانه يسرقه . فقد دخل المراح مرة أخرى ببطء وهو ينظر الى والدته وأخته .

ذهب عثمان الى شجرة الطلح التى وجد تحتها دروبا كثيرة للزرازير والقمارى . وهناك نصب شركه ورجع قافلا للبيت . وفي الطريق أحس بشوق ويتطلع نحو الغد ، الذرة قرب أن ينضج ، وشركه سوف يقبض له زرزورا او قمرية .. وأخته سوف يزفونها بعد حصاد الذرة .. لوازم العرس جاهزة

البامية الناشفة كثيرة ·· وأعواد الملوخية طالت ·· والريحة والحنة والمحلب والصندل اشترتها والدته من الحلبية كل شيء جاهز وابتدأ يغني ـ الله ليل ياليل ـ · في الخور الذي يقع جنوب الحلة كانت ليلى تحمل صفيحة مليئة بالماء ·· وتوقف عن الغناء · وحدق فيها : المياه تسيل على خديها ·· شعرها مبلول ·· وقالت له وهي تمسح المياه من عينيها ·

ـ عفنت البحر يوسخ حمارك ·

ولم يجبها فقط دندن ـ الله ليل ياليل · وتذكر فجأة ماكانت تقوله له أمه بالامس بعد أن تناولوا طعام العشاء · قالت له أمه :

ـ حتعرس ليلى والله فاطمة ولا عاشه ياعثمان ؟

ولم يجبها ساعتها ·· ولم يصدق انه وصل بعد مرحلة الزواج ·· الله ياشيخ عثمان ·· انت كبير ·· كبير وكل الناس يحترمونك لماذا لا تتزوج ؟ ودخل البيت · مكون من ثلاث حجرات مبنية من الجالوص · البوابة الرئيسية تهدمت جوانبها وشعر عثمان بكآبه وضيق ·· يجب أن يبني هذه البوابة ، ويغير السقف من القصب الى الجريد ·· ودخل على أمه ، ورائحة البامية التي لم تنضج بعد تقابله في بوابة المطبخ وجلس بقربها وأمه تعوس بينما كانت سعيدة تفرك البامية بقطعة خشب · وسأل عن أخيه الصغير الذي كان يغط في نوم عميق · ثم خرج بعد أن أخذ قطعة من الكابيدة التي كانت ترقد على طبق الدوم · توقف خلف البوابة الكبيرة ، وقبل أن يخرج التهم قطعة الكابيدة ·· وتوجه الى مراح ابقاره · أطلق حماره بعد أن وضع عليه جوال التراب ، وذهب الى الخور الذي يقع جنوب الحلة ، وهناك في حجرة جانبية بدأ عثمان يعبيء الجوال بالطين · وافرغ الجوال أمام البوابة الكبيرة ، وربط حماره خلف المنزل ، ودخل على أمه وأخته اللتين كانتا قد بدأتا في تناول الطعام · وجلس بعد أن غسل يديه من التراب ياكل معهن ، ثم قال لاخته سعيدة ·

ـ الضهر املي صفيحتين موية عشان عاوزين نصلح البوابة ·

ـ حاضر ·

تمدد عثمان على فرش مفروش على الارض ، وغط في نوم عميق · وأيقظته أخته وهي تقول له لقد أحضرت الماء وبللت الطين · فارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وخرج وهو يتثاءب · وكانت في عينيه بقية نوم تخلص منها عندما غسل وجهه · وجد أمه تعجن في الطين ، فاحضر طشتا ووقف فوقه وابتدأ البناء نزل من ظهر الطشت بعد أن أتم بناء الامكنة المتهدمة ، ووقف ينظر اليها · ثم مال بجسده يغسل يديه من بقايا الطين · بعد ذلك ركب حماره وذهب الى الساقية · فأخذ احدى بقرتيه وأخذ أخرى من مراح عم عبد الله وتوجه الى الساقية · نظر الى البئر ليتاكد من وجود كل « القواديس » ثم ركب على «التكم» وارتفع صوت الساقية عاليا جعل زوجة عم عبد الله توقظه من نومه · كان عثمان يغني «الله ليل ياليل» ثم يتبعها في حين لآخر بقراءة في المولد الشريف ·